الذّات والمستقبل
جدليّة الوافد والموروث

غيضان السيد علي ■

إننا نعيــش اليوم في عالــم جديد، عالمٍ بــه العديد من التغيّرات، عالم أصبح ـ بفضل التطورات العلميّة الحديثة ـ قريةً صغيرة، وعاصر الكثير من التغيّرات على كافة المستويات، السياسّــية والاقتصاديّة والثقافيّــة والاجتماعيّــة، أصبح واقعنا يطالبنا بقوة عبر ثوراته ـ التي لم تتوقّف عند الجانب السياسي أو الاقتصادي ـ بضرورة خَلْقِ ذاتٍ جديدة، تعبّر عن إنسان عربي جديد وأنظمة ثقافيّة مغايرة.

ولا يعني ذلــك أننا ندعو لقطيعة معرفيّة مــع ماضينا لبناء مستقبلنا؛ ولكنها الدعوة إلى تطوير الماضي وبناء مشاريع فكريّة وفلســفيّة قادرة على تحــدّي الصعوبات والمعوقــات، التي تعوق تقدّمنا، وتمنع مستقبلنا من مسايرة الآخرَ المتقدِّم بالفعل، ومن هنا تنبع ضرورة معايشــة أفكار رفاعة الطهطاوي وأحمد لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وطه حسين وزكي نجيب محمود في مصر، ومالك بن نبي في الجزائر، وعبد الرحمٰن الكواكبي في ســوريا، وغيرهم من المفكّرين الكبار التي كانــت لهم رؤيتهم

■ أستاذ الفلسفة الحديثة في جامعة بني سويف، مصر.

المستقبليّة، ومناقشتها بعقليّة منفتحة تستفيد من مزاياها، وترفض عيوبها مما يحقق ذواتنا الأصيلة في المستقبل.

وهذا يقتضي منا مراجعة الذات، بدءًا من منهجها المتبع في التفكير والإبداع إلى تقويم البناء ككل، وضرورة الإجابة ـ بحقّ ـ عن سؤال الأصالة والمعاصـــرة، التـــراث والتجديد، الأنا والآخـــر، ولا نكتفـــي بالمعالجات الســـطحيّة التي تنتهي غالباً بتسطيح المشـــكلة وتزييفها. ومعرفة الموقع الحقيقي للذات وتحديد الموقع المنشـــود في المســـتقبل، والذي سيكون الهدف الذي نسعى جادين لبلوغه في القريب العاجل.

من أجل ذلك لا بدَّ أن نقـــوم بخطوات مهمة ومحـــددة لمعرفة مكانة الذات الحقيقية بلا تهويل أو تحقير، ويأتي على رأسها:

معرفة الذّات وضرورة نقدها نظرياً وعمليّاً:

فمعرفة الذات على الحقيقة هـــي نقطة الانطلاق الحقيقية لتأكيد الأنا ومعرفة الآخر، وقـــد كتب اليونانُ القدامى على مَعْبَدِ دلفي شـــعار: «اعرف نفسك»، وذهب فلاسفة اليونان إلى أن مَنْ لم يعرف نفسه لا يوثق به في معرفة غيره، وتبعهم في ذلك فلاسفة العرب الذين رفعوا شعار «من عرف نفسه عرف ربّه». ومن ثم كانت معرفة الذات هي الأساس والنقطة الأولى التي يجـــب أن نبدأ منها. ومعرفة أنفســـنا اليوم تقتضي منـــا الإقرار بتلك الثنائية العنيفة التي تجتاح حياتنا على كافة المســـتويات، ســـواء الثقافيّة والفكريّة أو السياســـيّة أو الاقتصاديّة أو غيرها. في الحياة الفكريّة صرنا يميناً ويســـاراً بدرجة أصبحت تقتـــرب من حدِّ التطـــرف، فاليمين يرى أن العودة إلى الماضـــي والارتماء في أحضان التراث هو الحلّ، بينما اليســـار يرى أن نفض اليدين تماماً من قيم التراث ـ التي أعاقتنا طويلاً ـ والتوجه كليّة إلـــى التجربة الغربيّة المتقدّمـــة هو الحلّ الأجـــدر بالاتباع. والجدير بالذكر أن هـــذه الرؤيّـــة الفكريّة الثقافيّة أصبحت تســـيطر علـــى حياتنا السياسيّة بدرجة كبيرة، واحتار نظامنا الاقتصادي بين الرأسماليّة التي تمنع

إهدار المال العام، وبين الاشتراكيّة العدو اللدود للتمايز والفروق الفردية والمجتمعيّة، والراعيّة للعدالة الاجتماعيّة والمساواة ومنع الجور والظلم.

ولذلك فإذا كنا نتطلع حقّاً أن يكُون لنا فكرٌ مستقبليٌّ يحقّق ذواتنا بحق، فلا مناص لنا اليوم من أن ندخل في معركة داخليّة مع الذات، وتصفية الحساب نهائياً مع تلك الرؤى التي تنظر إلى المستقبل كامتداد للماضي البعيد، وتفكّر فيه وكأن مسار التاريخ قد توقّف، وبين تلك الرؤى التي ترى الخلاص في التبعيّة الخالصة للغرب. ولسنا في حاجة إلى التأكيد بأن قطيعة من هذا القبيل لم تتحقّق بعد في أي مجال، لأنه ما من قضية من قضايا الفكر العربي المعاصر إلا والماضي بثقله حاضر فيها كطرف. حتى يبدو أن هذه معركة تؤجَّل دائماً خوفاً من قتل الأب أو اغتيال التراث. وهنا ينشب الصراع بين فقدان الهوية وتأكيد الخصوصية، حيث يصبح فقدان الهوية متمثِّلاً تماماً في التبعيّة الثقافيّة للغرب. ومن ثم يتمثل الحلّ ـ من وجهة نظرنا ـ في إجراء الحوار بين الذات والآخر؛ حيث إن التفكير في المستقبل لا يمكن أن يكون مجدياً أو مثمراً إلَّا من خلال علاقة مقارنة بالآخر، الذي لولا مواجهتنا له لما كان هناك تفكير حقيقي في المستقبل بالنسبة إلينا. خاصة في عصورنا الحديثة والمعاصرة، فالمقارنة بالآخر تتيح دائماً إمكانيات للفهم والنظر، وتغدو مناسبات لتوسيع الآفاق الضيقة نسبياً من أثر المنظور القطعي والوثوقي.

إذا كنا نتطلع حقّاً أن يكُون لنا فكرٌ مستقبليٌّ يحقّق ذواتنا بحق، فلا مناص لنا اليوم من أن ندخل في معركة داخليّة مع الذات، وتصفية الحساب نهائياً مع تلك الرؤى التي تنظر إلى المستقبل كامتداد للماضي البعيد.

التجلّي السلّبي والإيجابي للذات مع الآخر:

لقد أصبح تفكير الذات في المستقبل مرهوناً بحضور الآخر بكيفيةٍ ما، رغم الشعور في الوقت ذاته بأنه يلغينا، فأين نحن من منجزاته

العلميّة والتقنيّة بل والأدبيّة والفنيّة والفكريّة في الآن نفسه؟! إنه يفرض علينا قيم الحداثة ومفرداتها، قواعدها وشروطها، بل إن شئت قل: يفرض علينا شـخصيته القوية المتقدّمة المتمدينة، وثقافته التي أصبحت واقعاً يفقأ الأعيـن، ومصدراً لا يمكـن أن يجحده عاقل إلا ادعـاءً أو جهلاً أو تجاهلاً وعناداً.

وهنا يتضح معنى التجلّي السلبي والتجلّي الإيجابي للذات في التعامل مع الآخر، حيث يتجلى المعنى الأول في رفـض الآخر، ووضع الرأس في الرمال، ورفع شعار «أمجاد يا عرب أمجاد»، وأنه «لا تقدّم للخَلَف إلا عن طريق اتباع طريق السـلف»، وما علينا إلا اتباع منهاج النبي ﷺ نفسـه الذي لم يتبع الشـرق أو الغرب، فلم يقلد الروم أو الفرس الذين كانوا مزدهرين في عصره؛ ولكن شَـقَّ طريقاً ثالثاً ينبع من الكتاب والسُّـنَّة!! فيعملون على الإلحاح على الاتّباع دون الإبتداع، والوقوف في وجه محاولات التجديد في الفكـر والفقه، بوصفها ذرائع قد تفضـي إلى الخروج على ثوابت الدين والشريعة، وقصر الاهتمام بالنقل دون العقل، والتشدد على النفس وعلى الآخرين والتوسّع في الأخذ بسدِّ الذرائع، وشغل الناس شباباً وشيبة بقضايا جزئيّة على حساب القضايا الكبرى، وكل شيء موجود في الكتاب والسُّنَّة دون النظر إلى دور العقل الذي هو أداة الاجتهاد الأولى، ذلك الاجتهـاد الذي هو ـ لا غير ـ سـبيل البرهنة على كمال الشـريعة وصلاحيتها وعالميتها وشـمولها، وينسـى أصحاب هـذا التجلّي دعوات النبي ﷺ إلى الدعوة لطلب العلم ولو في الصين، والأخذ بنصيحة سلمان الفارسي في شقِّ الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب، واطلاع السلف من المسلمين في القرون الأولى على منجزات الحضارة اليونانيّة والتعلم من مكنوناتها.

أما التجلي الإيجابي فيظهـر في الإيمان بالانفتاح علـى الآخر والإقرار بموقعه في التقدّم وضرورة الاسـتفادة ممـا وصل إليه، وعلـى ذلك يقدّم أصحاب هذا التجلّي الإيجابي ثقافة منفتحـة على العالم، تَعدُّ التعددية من

سـنن اللّه، وليسـت أمراً محدثاً ابتدعه المتحدثون اليوم عن العولمة وعن ضرورة الحوار بين الحضارات، ويؤمنون بأنه لا بدَّ أن نسـلّم بحقيقة الحال الذي وصلنا إليه مـن تراجع حضاري وجمود فكري، ومـن تأخر عن حيازة أسباب القوة، عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. فرحم اللّه امرأً عرف قدر نفسه، والاعتـراف بالحقِّ فضيلـة... ومن ثم يرى هـؤلاء ضرورة مسـايرة الآخر والانفتاح عليـه والتعامل معـه عن طريق إحيـاء روح الحركـة، والانطلاق والانتعاش في مواجهة روح السـكون والقعـود والانكماش، وإلـى بعْث روح التواصل مع الآخرين في مواجهة روح القطيعة والعزلة وسوء الظن بالآخرين.

يتضح معنى التجلّي السلبي والتجلّي الإيجابي للذات في التعامل مع الآخر، حيث يتجلى المعنى الأول في رفض الآخر، ووضع الرأس في الرمال، ورفع شعار «أمجاد يا عرب أمجاد»، وأنه «لا تقدّم للخَلَف إلا عن طريق اتباع طريق السلف».

ومن ثم يمكننا القول بـأن الثقافة الغربيّة المغايرة لثقافتنا تسـاعدنا على تحديث الفكر بروح التحليل والفهم والنقد، فليس أمامنا سوى أن نفتـح أعيننا على تلك الحقيقـة الصارخة، فالتبادل بيـن الثقافات غَـدَا أمـراً موضوعياً وظاهرة عالمية لا يمكن التغاضي عنها، بحيث لم يعد هناك أي حاجز قادر على الصمود أمام سـرعة انتقال المعرفـة والمعلومـات والأفكار والقيم والمكتسبات الإنسـانيّة الحاليّة. وعليه يكون التحاور مع الآخر ليـس إلغاءً للهوية ولا يمكن أن يطمس المعالم والخصوصيّة طالما تحلينا بروح التحليل والفهم والنقد، بل على العكس يكون الانطواء على الذات والتقوقع داخلها ـ بزعم الحفاظ على الهويّة والخصوصيّة ـ هو الإلغاء الحقيقي لهما.

الذات وإشكالية صياغة المفاهيم:

تُعَّد المفاهيم والمصطلحات هي المدخل الصحيح للمعرفة، وكثير من المفاهيم المغلوطة في ثقافتنا العربية تمثل سداً منيعاً وعائقاً حصيناً بيننا وبين التقدّم المنشـود؛ ولذلك حرص المجـددون والمبدعون على طوال

تاريخنا الفكري على ضرورة تحديد المصطلحات والمفاهيم التي يلجأون إليها في بناء نسقهم الحضاري، فهذا هو ابن حزم الظاهري (ت: 456هـ)، على سـبيل المثال، يقدّم لكتابه «الإحكام في أصول الأحكام» بمبحث عن الألفاظ الدائرة بين أهل النظر، تناول فيه ما يزيد على ثمانين مصطلحاً أصولياً... إلخ، وهـذا أيضاً أبو الوليد الباجـي (ت: 474هـ) قد حدد في مقدّمة كتابـه «المنهاج فـي ترتيب الحجـاج» مدلولات سـبعة وثمانين مصطلحاً من الألفاظ الدائرة بيـن المتناظرين، وفي الفلسـفة الحديثة اعتنى المجتهدون بالمفاهيم والمصطلحـات إلى درجة أصبحت فيها تلك المفاهيـم تقتـرن بأسـماء واضعيهـا، فيقـال «الكوجيتـو» الديكارتي و«مونادولوجيا» ليبنتس، و«ديمومة» برجسون... واعتنى أيضاً المجددون في الفكر العربي المعاصر بضرورة تحديـد المفاهيم والمصطلحات، بل إنهم عملوا على نحت مصطلحات جديدة تفي بأغراضهم الفكريّة الإبداعيّة، وتكون نابعة مـن الثقافـة العربية، فقـدّم عبد الرحمٰن بـدوي «الزمان الوجودي»، وزكي نجيب محمود «الجبـر الذاتي»، بينما قدم عثمان أمين «الجوانيّة»، وتوفيق الطويـل «المثاليّة المعدلة»، وغيرها من مصطلحات ومفاهيم أثرت الفكر العربي المعاصر.

فمشكلة المفاهيم والمصطلحات تؤدّي إلى إشكاليّة عويصة تعمل على اغتراب الذات، حيث يستخدم العديد من المفكّرين العرب مفاهيم تحذو حذو المنقول الثقافي الغربي حذو النعل بالنعل، حتى كأنه لا مشابهة ولا مقايسـة إطلاقاً، الأمر الذي أدى إلى قيام ازدواجيّة في الفكر الإسلامي العربي لم تورث أهله ـ إلى حـدِّ الآن ـ إلا الجمود على ما نقلوه، فحرموا أيما حرمان من ممارسة حقّهم في الإبداع الفكري المختلف.

ومن ثم يجب صياغة مفهوم أو مصطلح يعبِّر عن الذات متعددة يعمل على اغترابها بحيث يسـتقيم على أصول النظرية التداوليّة، هذه النظريّة التي تجعل دلالة اللفظ متعددة بتعدد الاستعمالات، وموجهة بأهداف التأثير والتغيير، عبر مظهر الامتداد الدلالي والامتداد التداولي.

لذلك يصبح ضرورياً الاعتماد على مصطلحات نابعة من ثقافتنا وإنشاء ما يلزم من مصطلحات، فالمفاهيم هي المدخل للمعرفة، وهي أيضاً المدخل إلى ضبط السلوك المعرفي للإنسان، إذن فنحن نحتاج حقّاً إلى إعادة النظر في كل المفاهيم التي نتلقاها؛ لأننا نستخدمها بوجوهها الأصلية في حين أن واقعنا لا يطابق هذه الوجوه، فلذلك ينبغي إعادة النظر. ولذلك لا بُدَّ أن يسعى مفكرونا جادين في صياغة ونحت مصطلحات ومفاهيم فكرية جديدة، وفق مقتضيات المجال التداولي العربي الإسلامي، وهو ما يسمح بالانخراط في الكتابات الفكرية الحية، التي تكُون مفاهيمها مبثوثة في قلب المتلقي العربي لا في قلب سواه، ولا اعوجاج فيها ولا تحيز، وتكون أصولها مركوزة في التاريخ العربي لا في تاريخ غيره.

يصبح ضرورياً الاعتماد على مصطلحات نابعة من ثقافتنا وإنشاء ما يلزم من مصطلحات، فالمفاهيم هي المدخل للمعرفة، وهي أيضاً المدخل إلى ضبط السلوك المعرفي للإنسان، إذن فنحن نحتاج حقّاً إلى إعادة النظر في كل المفاهيم التي نتلقاها.

من معرفة الذات إلى فهم الغير:

إن ثقافة الآخر ستظل حاضرة أمامنا، شئنا أم أبينا؛ أي: إن الآخر وثقافته سيظلان حاضرين في ثقافتنا ولفترة طويلة آتية، وربما في الشكل المزدوج نفسه: حضوراً كخصم نخشاه، وفي ذات الوقت حضوراً كمثال ونموذج تفرض علينا مرحلة التطور الحالي للبشريّة الاستعانة به والاستفادة منه، خاصة في ميادين العلم والتكنولوجيا، ولِمَ لا في مجالات الفكر والثقافة أيضاً، التي نعلم أن إشكاليتها لها علاقة متينة ومتميّزة بهذين الميدانين؟ وهل بمقدورنا مثلاً غضّ الطرف عن مسألة أن ما يجعل «القراءات الجديدة» للموضوعات التراثيّة، والاجتهادات في التأويل ذاتها في أعيننا شائقة وخصبة؛ هو كونها تنعش باستمرار كلما ظهرت أدوات منهجيّة حديثة في الثقافة الغربيّة.

ومن ثم فعلينا أن ننطلق من معرفة الذات إلى فهم الغير، وتفعيل منطق الحوار بين الأنا والآخر، ومن ثم فيجب أولاً معرفة الذات وإزالة تلك العقبات المصطنعة التي تعرقل فهم ذواتنا؛ مثل تلك الإشكاليات الزائفة بين: العقل والنص، العلم والإيمان، النظر والعمل، متطلبات الروح وحاجات الجسد.. مع الإقرار بأن الحوار الداخلي للذات هو الذي يـؤدّي إلى التصالح ويهدي إلى توحيد القرار، ويدفع إلى العمل الذي يؤكّد الوجود والقدرة على الاستمرار، ففهم الذّات على حقيقتها هو الحـل الأمثل لفهم الآخر. وإن أخطر ما يعرقل هذا الفهم هو التعصب المذهبي والتنطع في الدين، وحلول المتغيرات مكان الثوابت، وتغليب المصلحـة الفرديّة على المصالح العامـة، فإذا زالت هذه العوارض عادت الـذاتُ إلى فهْم ومعرفة نفسـها، ومن ثم يتسـنّى لها فهْم ومعرفة الآخر، وكأننا نعود مرّة أخرى إلى الشـعار الـذي رفعه قديماً علماءُ وفلاسفة الإسلام: (من لم يعرف نفسه لا يوثق به في معرفة غيره).

وبالانطلاق من معرفة الذّات والوقوف على سلبياتها وإيجابيّاتها، تتم اليقظة من السبات العميق، وتتم معرفة نقاط الضعف والخلل التي تشدنا إلى أسفل كلما أردنا الصعود إلى النُّور والتقدّم ـ كما تتعلّم الذات مساءلة نفسها قبل وأثناء فعْل مساءلة غيرها. فهذا الوعي الذاتي كما يقول جابر عصفـور في «أنـوار العقل» ـ «يقـوم بفعـل التصفية الذاتيـة والقطيعة المعرفية مع ميراثه السـلبي، يمارس الفاعلية نفسـها حين يضع (ميراث الآخر) أو أقوال (الغير) موضع المسألة، فيؤكد حضوره النقدي إزاءها، ولا يتلقاها التلقي المخدر الذي يكتفي بسـلب الاسـتقبال، بل يتلقاها التلقي الفاعل الذي يتحول بعمليّة الاستقبال إلى عملية إعادة للإنتاج وإسهام فيه» (ص108)؛ أي إنه: إذا كان الفهم نقيض النقل، والإبداع بديل الإتباع؛ فإن الفهم يعني تملّـك المفاهيم الآتية مـن لدن الآخر والقـدرة على إعادة صياغتها وتشـكيلها بما يخدم الذات ويراعي مقتضيـات الظرف المكاني والزماني؛ الأمر الذي يحوّل الذات من ذات متلقية اسـتهلاكيّة إلى ذات منتجة ابتكارية تؤكّد حيوية التغيّر وثراء الإبداع.

إذن فمعرفة الذات لطبيعتها الحقيقة يؤدي بها لفهم الآخر، كما يؤدي فهم الآخر إلى كيفية التعامل معْه وبيان آليات التحاور والاستفادة البناءة من تقدّمه غير المنكــور. كما أن معرفة الذات وفهــم الآخر يعملان على تحرير الهويّة الثقافيّة من مخاطر النزعات العرقيّة، التي تقوم على أوهام التعصب التي تقصر التفوق على جنس دون آخر، من حيث هو إنسان، بعيداً عن تمييز العــرق أو الجنس أو الثروة أو اللون أو اللغة، ويؤســس لمكانة العقل الذي هو أعدل الأشــياء قسمة بين البشــر، وإن مفهوم الإبداع حق أصيل لكل البشر ومختلف الحضارات.

إنّ معرفة الذات وفهم الآخر يعملان على تحرير الهويّة الثقافيّة من مخاطر النزعات العرقيّة، التي تقوم على أوهام التعصب التي تقصر التفوق على جنس دون آخر، من حيث هو إنسان، بعيداً عن تمييز العرق أو الجنس أو الثروة أو اللون أو اللغة، ويؤسس لمكانة العقل الذي هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر.

وهكذا تجد الذات نفســها على المحكّ مع ســؤال المســتقبل، فهــل تعــرف نفســها على الحقيقة، وتعــي موضعها ومكانتها وســط هذا العالم، الذي يمــوج بتقلبات ســريعة وعنيفة، لا تنتظــر الكســالى، أو الغارقين فــي أحلام اليقظــة، أو المتغنيــن بماضيهــم البعيــد، أو الباكين على مجدهم التليــد؟ فلا مناص إذن لهذه الذات إلا أن تمارس التجلي الإيجابي مع الآخر، ذلك الذي لا يعوق عناصــر التغيير أو الحركــة، فيحفــظ الهويــة والخصوصيّة، في الوقــت الــذي يؤكــد حيويّــة الإبــداع وعفويّة الابتكار. وأعتقــد أن الوقت قد حان لتســتفيق الذات العربية، وتمارس الحوار البناء والخلاق مع الثقافات الغربية؛ لتعبر أزمتها الحضاريّة من خلال جســر «معرفة الذات» الذي يؤدي إلى كيفية فهم الآخر والتعامل معه، والتأكيد على أن هذا التعامل لن يمنعها أبداً من الإبداع الذاتي، والوصول في طريق التقدّم إلى أبعد غاية.